

في الليل الموحش العتم كانوا يتمترسون خلف الأكياس الرملية على الشاطئ، أيديهم ممسكة بالبنادق العتيقة (أبو فتيل) وبالسيوف الحادة، وونيسهم الوحيد موسيقى تبعثها الرياح الخريفية عبر أمواج البحر. وهناك بعيداً بعيداً تنتصب على الرمال البيوت السعفية والطينية - وآخر أطلالها هذا الجدار - تختزن صدى البكاء والعيول على القتلى والجرحى بتلك النيران، يرميها ذلك الشيء المخيف الرابض في كبد البحر. كان الوحش يرسل جراثيمه بين الحين والآخر، عبر قوارب تجديف تتسلل إلى الشاطئ وتنتشر الذعر والخوف. الرجال صامدون يحركهم مصير واحد، فالشهادة مطلب في مواجهة الغريب الذي جاء ينهب ويسرق ابتسامة تأبى أن تفارق الأرض الرائحتها عطاء دائم، ودروها خطوات العاشقين في الليالي القمرية. وفي تلك اللحظة وصلت لأهناً بالراحة بعد سهر الليالي في الحفر الرطبة. امتلأت السكك السعفية بالروائح العفنة. أبدت الكلاب استيائها للأعمال القذرة وهي تجرى عبر الأزقة باتجاه ذلك الوحش. أحسست بالدم يتصاعد في عروقي. خطوات بسرعة في الزقاق الرطب المؤدي إلى المنزل السعفي ذي الحزن الدافئ والابتسامة البريئة. أسرعت عندما مرّ أحد القوم وهو يردد (لا حول ولا قوة إلا بالله). وعندما وصلت إلى نهاية الزقاق. وقفت عندئذ ولم أجرؤ على السؤال فقد كان الجواب ماثلاً أمامي. تسابقت أيدي القوم تربت على كتفي وتواسيني (أحسن الله عزاك يا أبو عبدالله)، أمسكت أحد الرجال بكلتا يدي وهزته بعنف: لزم الرجل الصمت مرثياً على صدري. انفجر باكياً وهو يردد (أحسن الله عزاك فيهم). اغرورقت عيناى واحتضنته بكل قوتي وضغطت بجسمه على صدري. خنقت بداخلي الصرخة الحادة، تقدم أحدهم: كنا نطفئ حريقاً. وإذا بنا نشاهد تصاعد اللهب قريباً من دارك. وإذا بالنار قد أتت على الخيمة التي كان فيها الأولاد وأمههم، اتكأت على أكتاف من كان بجانبى. حرارة المكان تلفحني وتزيد دمي غلياناً، اقتربت من الجثث الملقاة على بقايا السعف الذي تم إنقاذه. جثوث على ركبتي والعرق ينضح من جسدي بغزارة. نزعت الغطاء ببطء وإذا برائحة اللحم المحترق تخنقني. نهضت واقفاً على قدمي المرتجتين. تناولت بيدي حفنة من الرماد الساخن. أحسست بحرارته وأنا أقدمه للرجال والألم يتفجر في ويفتك بأوصالي وتتدفق من عيني دموع ما لها من قرار: واختنقت بالنشيج والغضب، كيف أقول لهم إن هذه القبضة من الرماد هي الحياة التي خنقت، وأغاني المراجيح وضحكات العاشقين والسمار في الليالي الجميلة وقد تحولت رماداً أسوداً؛ انشغلنا في إعداد الجثث لدفنها في الصباح الباكر بعد صلاة الغائب، انفردت بعدها على كومة من الرمال على بعد خطوات من الشاطئ. تداعت في مخيلتي صورة الأم والأولاد والحكايات الحلوة على (المنامة) المزروعة وسط ذلك المنزل. اقتشرت قطعة قماش هندية كنت أضعها على رأسي (غتره). زرعت وجهي في حضن الرمال. ثم استلقيت وعيناى مشدودتان تجاه ذلك الوحش، انهالت مطرقة الأفكار على رأسي. (مبارك... (الشاحوف)... أجل الشاحوف. لا بد أن يرحل قبل أن أواربهم التراب). حيث يرسو شاحوف مبارك الذي اتخذ منه مسكناً ووسيلة لرزقه. ركضت عبر الظلمة فوق الأحجار وبقايا عظام الأسماك. تراءى لي الشاحوف يتراقص مع الأمواج الصغيرة، لفحتني نسيمات الخريف الآتية من البراري وأنا أنزلق إلى الماء لأجذب الشاحوف، قفز مبارك من نومه مرعوباً على أثر ارتطام الشاحوف برمال الشاطئ. وثبت على (الفئة) ونزلت في (الخن) وأخذت أبحث عن سكين بين أكوام (الشبا). - من...؟ أبو عبدالله. تناولت طرف القماش الذي كان يلتحف به مبارك ومسحت السكين من بقايا الأسماك والأعشاب البحرية. أترى ذلك الوحش الذي انهال علينا بنيرانه المحرقة. سكنت مبارك ولم يرد بكلمة واحدة، وكأنه شعر أن الأمر لا يعدو أن يكون دعاية عابرة. وكيف يا بو عبدالله وهو يدمر كل شيء وها قد مرت عشرة أيام ولم يبق من البلد إلا أطلالها. وضعتها على السطح الأمامي. ودفعت بالشاحوف إلى أعماق البحر. - ما عليك يا مبارك الآن إلا أن توصلني إلى ذلك الوحش. - أعرف أن الشاحوف صغير والأمواج بدأت ترتفع، لكنها الفرصة الوحيدة التي ستساعدنا للوصول بقربه دون أن يشعروا. استمر في التجديف والزم الصمت حتى نصل. بدأنا نضرب تلك المجاديف بخفة وتناسق والشاحوف يمخر عباب المياه بانسياب. خرجنا إلى عرض البحر، حيث الأمواج السريعة الانكسار، واستمر الشاحوف بالانزلاق وسط الصمت حتى اقتربنا. يترأى لنا عبر الأفق كأنه الجبل المارد. ابتعدنا قليلاً حتى يهجعوا للنوم. - لم تخبرني يا بو عبدالله عما أنت مقدم عليه؟ - اسمع يا مبارك بعد أن يناموا سأسبح حتى ذلك الوحش. - أبو عبدالله إن هذا لجنون. - يقولون إنهم أقوىاء وأبدانهم حمراء ومكتملو البنية وإنهم يملكون المعرفة بكل شيء، وهل تستكثر عليّ هذا العمل والرجال يقدمون أرواحهم؟ - حالما أنزل ابتعد بالشاحوف وعد إلى الشاطئ، ولا تخبر أحداً وأنا سأنتدر أمري وأعود سباحاً. رائحة الحريق والرماد السعفي تتفاعل بدمي وتثير فيّ عطش اللحظة التي سأطفئ فيها نار الخراب. خلعت الفانيلة (الوزار). ليست سرور مبارك الذي يستخدمه في الغوص، نزلت إلى الماء بعد أن ثبتت السكين بالحزام الذي هو عبارة عن خيوط صوفية محاكة بإتقان، تقدمت سباحة عبر تالطم الأمواج. سرت في رعدة عندما لامست رجلاى هيكله الحديدي البارد. لكن سرعان ما استدركت إحساسي أن مبارك يراقبني. بعد أن اقتنصت فرصة نومهم جميعاً. تسلقت بواسطة حبل المرساة وضربات قلبي تزداد

قوة، وبعد جهد مشوب بالحذر وضعت قدميَّ على السطح. وهو يتحرك في الظلام جيئةً وذهاباً في خطوات منسقة ووقع أقدامه يثير فيَّ الرعب. تقدمت إلى (الغمارة) وإذا بي أشاهد حارساً على بابها وهو أمر لم أكن أتوقعه. افترسني الخوف بيد أنه لم يكن لي خيار. تسللت إليه بحذر وبادرته بضربة قوية بالسكين في صدره. كتمت أنفاسه بيدي الأخرى وسقط متكئاً على ذراعي. دخلت بعدها الغرفة وإذا بجسد رجل ضخم البنية طويل القامة، سيطر عليَّ الخوف وتوجست في حقيقته. ربما لا يكون القائد بعينه. صور المآسي والحرائق والأطفال اليتامى والمراجيح التي شنقت عليها الأغاني. هويت بيدي المرتجفة بالسكين على صدره، وحبست أنفاسه بمخدة قطنية منعاً للضوضاء والصراخ. شعر الحارس بالأمر وشاهدته يقترب من خلال الأفق البعيد.أسرعت باتجاه الباب متعثراً بأكوام الحبال. قفزت إلى البحر غائصاً في الأعماق وهواجس الخوف والارتباك تملك مني النواصي. وحالما طفوت إلى السطح أمطرتني الجنود برصاص بنادقهم. فقدت على إثرها قواي، غير أنني ظللت أصارع الأمواج وألم الجرح حتى ارتطمت بالشاطئ. زحفت على الرمال متلبساً بهستيريا لم أحتملها.حملقت بالوجه المحيطة. وإذا بمبارك واقف والابتسامة تملأ ثغره ودموعه الساخنة تنثال على وجهه. امتدت أيدي القوم وعبارات الأسي تلعو الأفواه المكلومة، حملوني إلى الحي الحزين والجرح ينزف بغزارة.كأني بالكلمات المحفورة على الجدار القديم تتحرك، وتنطق لكل الأجيال أن هذا الجدار يعرف حكاية أبو عبدالله. وتحته تم غسل جثة أبو عبدالله. وتحته أيضاً قال أبو عبدالله للرجال (ألم أقل لكم إن الوحش لا بد أن يرحل). وتحته هذا الجدار احتضنت أبو عبدالله، وبكيت على صدره كثيراً عندما شاهدت الوحش يرحل. وأنا الآن أناهز التسعين عاماً ولا يحلو لي ظل للراحة إلا. والقوم اليوم يسخرون مني ويطلقون عليَّ «مبارك عاشق الجدار القديم» ولا يدركون أنه على هذا الجدار. رأيت المطوع إبراهيم يكتب آخر عبارة نطق بها أبو عبدالله...